تَقْدِمةُ ابنِ بَرَّجانَ لِـ"تنبيه الأفهام"
تعليلُ مَعَانٍ، وتأويل مَبَان

د. داود الهكيوي
أستاذ باحث
المغرب

تصدير:

فجر الوحيان الإسلاميان علوم العربية ومباحثها، وانتعشت أسواق العلوم والآداب والنقد في خدمة الكتاب العزيز، وحفظ السنة المطهرة، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، فانتصب علم التفسير واحدا من تلكم الدّعامات التي خدمت كلام الواحد الأحد والعربية في آن معا.

وقد تنوعت زوايا تفسير كلام الودود الدّيّان على مر تاريخ هذا العلم؛ فَقيلَ تفسيرٌ بالمأثور مثل صنيع ابن كثير في (تفسير القرآن العظيم)، وتفسير فقهيّ مثل نهج القرطبي في (الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمن من السنة وأحكام الفرقان)، وتفسير نحويّ مضارع لما خطه أبو حيان الغرناطي في (البحر المحيط)، وتفسير بلاغيّ مُشاكل لما أقدم عليه الزمخشري في (الكشاف في حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل)، وتفسير كلاميٌّ انْظُرْهُ في عمل الفخر الرازي في (مفاتيح الغيب)، بينما نُعت التفسير الإشاري بأنه عمل ذوقي، وفتح من الوهاب الكريم لعلماءَ كانوا بنور الجميل الحييّ عز وجل ينظرون.[1]

وتحت بيرق التفسير الإشاري للقرآن المجيد، أُدرج كلّ من محمدٍ الأزدي السُّلَمي في (حقائق التفسير)، ومحي الدين بنِ عربي في (الفتوحات المكية)، وابنِ عجيبةَ الحسني المغربي في (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد)، وأبي الفضل الألوسي في (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني)، وأخيرا موضوعِ هذه الورقة أبي الحكم بنِ برّجانَ الإشبيليّ المراكشي؛ صاحبِ التفسير الشهير مَشرقاً قبل المغرب: (تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم، وتعرّف الآيات والنّبأ العظيم).

ونظرا للجدل والنقاش الدائرين بخصوص ابن برّجان وتفسيره في العقود الأخيرة مشرقا ومغربا، واعتبارا لكون مقدمات الكتب في التراث الإسلامي خاصة[2] حواضنَ دسماتٍ لتحصيل تقاريرَ سريعةٍ وموجزة لجوانبَ هامةٍ ذات عُلْقة بمتون المخطوطات وخُطَّاطِهنَّ، وحافزِ التأليف ومهيعه، بَلْهَ جِدّة الموضوع وإبداعية الأسلوب الافتتاحي، نقول: تُرى ما هي رؤية ابن برجان من خلال مقدمته لمشروع تفسير القرآن الكريم ؟ وهل تمكّن خطابه المقدماتي من اختزال العناوين العريضات لمشروع الرجل التفسيري محتوى وهيكلاً ؟ وما هي ظروف وملابسات إنتاجه التفسيري الذاتية والموضوعية ؟

هذا العالِمُ من تلكمُ البِيئةِ:

كانت الأندلس[3] دُرّة الأمة وجوهرة عمامتها؛ فقد "خَصَّ الله تعالى بلاد الأندلس من الرّيْع وغدَق السُّقيا، ولذاذة الأقوات، وفراهة الحيوان[4]، ودُرور الفواكه، وكثرة المياه، وتبحر العمران، وجودة اللباس، وشرف الآنية، وكثرة السلاح، وصحة الهواء، وابيضاض ألوان الإنسان، ونُبل الأذهان، وفنون الصنائع، وشهامة الطباع، ونفوذ الإدراك، وإحكام التمدن والاعتمار بما حُرِمه الكثير من الأقطار."[5].

وقد ظهرت آثار فضائل البلاد الأندلسية –هذه– على الإنسان فصار شعلة من النشاط والتميز والشفوف مما أحال التجربة الأندلسية في وعينا الجمعي إلى وشم تاريخي فريد نَعُضّ على الأنامل عند تذكرها أسفا وحسرة، ونصطلي لوعة وشوقا بلسان حال يقول: ليت ما كان يعود يوما، لاسيما والأندلس لا تزال –وإلى يوم الناس هذا– " تغازلنا من بعيد بما خلفته من تراث نافع، نديّ الذكريات لنا منه ألف عِبرة وعِبرة "[6] بُعيد ما أهرق الموريسكيون –كمدا بمصابهم– ألف عَبرة وعَبرة.

يقول المقّري عن تميز أبناء الأندلس في مقدمة "النفح"، وهو –آنئذ– في المشرق: "وكنت في المغرب (...) معتنيا بالفحص عن أنباء أبناء الأندلس، وأخبار أهلها التي تنشرح لها الصدور والأنفس، وما لهم من السبق في ميدان العلوم، (...) ومحاسنِ بلادهم، ومواطن جدالهم وجلادهم، حتى اقتنيت منها ذخائر يرغب فيها الأفاضل الأخاير، وانتقيت جواهرَ فرائدُها للعقول بواهر (...)"[7].

فمن تبخيس الذاتِ حقّها، إلى تنقيصها من قبل البلديّ والمجاور، ومن تشكيك المشرقيّ في قدراتها، إلى امتعاض الأندلسي من ذلك، إلى ضربه في مناكب العبقرية والإبداع قصد تلميعها وتثمين مؤهلاتها: مراحلُ اجتازتها الشخصية الأندلسية في صراعها مع الذات، ومع الأخ المشرقي، ومع الشقيق المغربي.

بعد مخاضات متلاطمات، بدأت تظهر إلى الوجود شخصية أندلسية فريدة؛ فيها من الشرق ما فيها، ومنطوية من المغرب على ما شاء الله أن تنطوي، ومفعمةٌ بالمُناخ الأندلسي، وطقس الإقليم المحلي، وتنويعات التوليفات الحضارية واللسنية والعرقية الثرية.

فصار ذكر البلاد الأندلسية يُحدث بريقا ويثير تبجيلا؛ حتى صار يُضرب المثل –في المغرب والمشرق وأروبا– بالشخصية الأندلسية؛ أُنموذجا سامقا في عَلْياءِ الذكاء والعبقرية والتحضر والنظافة والإقدام والتديّن.. .

حيازة المغرب المرابطي للأندلس؛ حمايةً لها من الذات والآخر:

ابتداء من العَقدين الأخيرين من القرن الهجري الخامس، تنفست الأندلس الطائفية الصعداء –من الحرب الأهلية والعمالة للإسبان المدعومين أوروبيا– بإذعان البلاد للنفوذ المرابطي وعاصمته مراكش. واستمرت الحركة العلمية والحضارية خصبة معطاءة، لاسيما وأن المصادر تؤكد اهتمام المرابطين والموحدين من بعدهم بالنبغاء والعلماء الذين كانوا يغشون أبوابهم من كل حدب وصوب.

إن التشرذم السياسي المرفق بالتباري والتنافس والسبق نحو التعلم والعلماء، قد أفاد الثقافة الأندلسية، مقارنة بالوحدة السياسية التي سيطرت فيها العاصمة المركزية: قرطبة. فما بالك وقد أعاد المرابطون والموحدون وحدة الأندلس، بل واستمروا في جعل العاصمة الموحدة المركزية هي مراكش في بر العدوة المغربية.

فعلى الرغم من توحد القرار مركزيا إبان الحكم المرابطي، إلا أن أمراء وولاة الأقاليم الأندلسية من المرابطين قد فتحوا أبوابهم لأرباب العلوم والآداب والمهارات، فنفَقت أسواق الفقه والأدب والكتابة، وانتُشل المهرة من كتبة الطوائف وأعلامها من العطالة والكآبة، فغدت مقرات الولاة والأمراء قِبْلاتٍ للقُصّاد، ومنتجعات لذوي العقول وأهل الوحيين والنقول.

ترجمةُ أبي الحكم عبدِ السلام بنِ برّجانَ:

هو" أبو الحكم، عبد السلام[8] بنُ عبد الرحمن بنُ أبي الرجال محمدٌ بن عبدِ الرحمن اللخمي، المغربي، الإفريقيّ، ثم الأندلسي، الإشبيلي، شيخُ الصوفية"[9][10] ؛ عالم مغربيّ قد يكون ميلاده مابين 450 و470 للهجرة[11]. وفد على الأندلس زمن إمارة المعتضد بن عباد في إشبيلية، وعُرف بزهده وتنسُّكه والعلم روايةً ودرايةً، وكذا بخلقه وورعه وتدينه والفراسة. " ألف رحمه الله كتابه في التفسير وجرى فيه على طريقة لم يُسبق إليها واستقرأ من آياتٍ عجائبَ، وكوائنَ من الغيوب؛ إلا أنه أغمض في التعبير عن ذلك[12]، فلا يصل إلى مقصوده إلا من فهم كلامه، وألِف إشارته وإلهامه".[13]

"وكان يؤثر اعتزال الناس والبعد عنهم، ويختار الخمول[14]، ويعمر أوقاته بما يرجو فيه التخلص والقَبول؛ وامتُحن –رحمه الله– (...) ثم تخلص بلطف الله وفضله؛ وتوفي بمراكشَ في تغريبه الامتحاني" [15]. إلا أن المخاوف السياسية والوشايات الكيدية والتزلفية نسبته إلى فتنة المريدين الأندلسية، ماجعل المرابطين إبان حكم علي بن يوسف ابن تاشفين يستقدمونه إلى عاصمة الدولة مراكشَ؛ لاستفساره والمناظرة ووضعه تحت عدسة المراقبة؛ حيث "تعرض لمعاملة سيئة للغاية"[16]؛ لأن" أكثرية المثقفين المغاربة يومئذ يرون في تصوف ابن برّجان خروجا عن الإطار السُّنّي، وتشبّعا بالكلام والفلسفة ".[17]

فكان أن لقي ربّه في السنة ذاتها: 536 للهجرة، بعد توقّع منه شبه صريح بتجرع أمير المسلمين الحِمام بُعيده، واستشراف مستقبلي مبهم بفتح بيت المقدس بعد المائة الهجرية الخامسة بثلاثة وثمانين عاما. "درس اللغة العربية والأدب والتفسير القرآني، وبلغ شأنا عظيما في فروع المعرفة المختلفة؛ مثلِ علم الحساب والهندسة والفلك. فضلا عن ذلك، كان متميزا في علم الكلام، وكان من أهل المعرفة بالقراءات والحديث".[18]

كُوَّةٌ على مضامين مقدمة تفسير ابن برجانَ:

استهل عبد السلام بنُ برَّجانَ مقدمة تفسيره بالثناء على المتكبّر العليّ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، مع الإطالة فيهما بأسلوب مسجَّع ومفردات منتقاة بعناية:"سبق القَبْل قِدَمُه فلا قبل له، وفات البَعْد بقاؤه فلا بعد له".[19] ثم استأنف ثناءه على الرّازق الرّزّاق مطيلا مسجعا، مستغلا إحاطته بأسمائه الحسنى[20] عنوانِ سِفره الثاني الشهير والرائج:"متعالياً في بهاء جبروته، مرتديا بالكبرياء، مؤتزرا بالعظمة، حياً لا يموت، يقظاناً لا ينام، قيوماً لا يغفل، حفيظاً لا ينسى، شهيدا لا يغيب".[21]

تطرق بعدها –في معرض ثنائه على الغفور الغفار عز وجل– لقدرته على خلق الإنسان بمزيج من الطين الأرضي ونفخة الروح العلوية؛ في مراحلَ وأطوارٍ وظلمات ثلاث، خلقا من بعد خلق:"ولما صوره لحما وعظما، أنبض فيه روح الحياة نبضا".[22]

عَوْد على الصلاة على خاتِم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، أفضلِ الخلق وسيّد المرسلين، ونبيّ آخر الزمان الذي بشرت به زُبُرُ أهل الكتاب الأولين:"هو الذي بشر به عيسى، ووُجد ذكره في صحف إبراهيم وموسى صلوات الله عليه وعليهم أجمعين"[23]، وميزه بالمعجزة القرآنية دليلِ الإنس والجان إلى حيازة مفتاح السعادة في الأولى والبرزخ والآخرة.

فَصَلَ المُفسّر الخِطاب بأمّا بعد، متحدثا عن منح الله تعالى الفرصة لعباده ليعتبروا ويهتدوا عبر الكتاب المنير، وبوساطة

تأمّل الذات والمحيط، مشيرا إلى خطورة الإعراض عن سَنَن الرّشاد، ومجازفةِ المُعرِض بمصيره والمآب. والقرآن المجيد كلام الرقيب الحسيب، وبفضله ومنّه جعله في متناول أفهام الأناسي؛ و"لولا ذاك ما لمحه ببصيرة مستبصرٌ، ولا استخرج منه غامضا عقلٌ متفكّرٌ".[24]

والبشر بحسب عبد السلام بن برّجان طرز وأضرب، تبعا لما استحوذ على تركيبهم من عناصر الأخلاط التي خلقهم الخالق الخلاق تعالى منها. فمنهم ضاريُّ الطبع تُرابيُّهُ وهو البليد الجاهل، ومنهم النباتيّ النَّهِمُ غزير الغباوة نزر الفطنة، ومنهم البهيميّ ذو الغفلة والتهوّر؛ وهو –بدوره– أصناف تماشيا ونوع البهيمة؛ فالجنس السَّبُعيّ مثلا إلى إهراق الدماء ميَّالٌ، منجذب إلى الغضب والغلبة.

والأجناس الموردة –هاهنا– تقع ضحية طبعها ما وُكِلت إلى أَنْفُسِها، أما إن جنحت إلى التعقل، فإنها تصدر عن فحص وتمييز. أما من كان ذا طبع ملكيّ[25]، فهو "كثير الحياء، قليل الخلاف، كثير الإسعاف، راغبا في الحقائق، مبتغيا للإنصاف والمحاسن، مجانبا للقبائح، مباعدا للرذائل، عاملا بالعدل، مائلا إلى الفضل والإحسان، وهذا والذي قبله قد أماله خالقه برحمته إلى جنبة الفتح[26]".[27]

فحالما يوهَب المرء الإيمان، تزكو نفسه، ويتيسر له الصلاح، فتُساير طباعُه الحقّ، وتتوافق ميوله والطريق القويم، "غير أن الله عز وجل قد أرصد لمن شاء من أهل الإيمان المغفرة والرحمة، وأرصد لأهل الكفر إحباط الأعمال والأخذ بأسوء ما جَنَوْهُ..".[28]

علاوة على التوفيق الإلهي للعقلاء وملكيّي الطباع، يلهم الوهّاب المُعطي جلّ وعلا بعض عباده تجاوز القدرات المألوفة في الأنام؛ حتى تتكشف لهم الحُجب عن بعض الحقائق بأنوار أفئدتهم، وبالغ إخلاصهم؛ فتحلّ البصائر محل الأبصار، وترتقي الخمسُ الحواسُّ إلى ما وراء الطبيعة، فيخصّ المحسن الوليّ جلّت قدرته هؤلاء باستطاعة تلقي فُتوحه، وتجشّم ثقلها وعدم الاعتيادية.

والأسرار التي تُلقى في أرواح المؤمنين الذاكرين، إنما هي ألغاز يستوعبها الحُذاق تلقائيا، أومسائلُ معقولة يهتدي إليها النّبهاء من بعد تدبر وأناة. وعليه فالفهوم والإدراكات أرزاق وأُعطيات ربانيات يغدقها المنان الجواد[29] على من ينتجب من عبيده والأصفياء.

هذه الوهيبة الإلهية في الاطلاع على الخبيئات، والنفاذ إلى الأوطار الجليلة المقدار، قد تعرج بسموّ صاحبها إلى درجة المخاطبة والمشافهة[30] –بحسب ابن برّجان– بفضل مقام الصِّدّيقية. "والصديقون هم الذين صُفُّوا من أكدارهم فَأُعْلوا في درجاتهم وهذا كله مفهوم من خطاب القرآن العزيز".[31] وما إخال أبا الحكم هنا إلا يشير إلى مقام الولاية ودفاع النّصير المقتدر جلّ جلاله عن المؤمنين.[32]

فالتقوى العتيدة –بمشيئة الرحمن– هي ما يرقى بالإنسان إلى الإيمان، ومن الإيمان إلى الإيقان، ومن الإيقان إلى الصِّدّيقية، ومن الصديقية إلى النبوة. وحيث إن النبوة –كما يرى ابن برجان– قد خُتمت بالحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، فالمعوّل عليه لنيل سعادة الدارين، وفلاح الشوطين، إنما هي التقوى بفضلٍ من الله ورحمة.

قال المصور عزّ في عُلاه:" أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ".[33] فسّر ابن برّجان الآية الكريمة متعجبا من العنصر الواحد الموحد الذي هو الماء، يؤدي –بأمر الله– إلى إنتاج عناصرَ متباينات الألوان والأحجام،

ومتنوعاتِ الأشذاء والأطعام، ومتعدداتِ الأشكال والقِوام؛ مصداقا للتنزيل العزيز: " وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ".[34]

فلا غرابة –والحال هكذا– أن يمتد الثراء –لحكمة منه تعالى– إلى درجات الهداية البشرية والطرائق؛ من وحي وعقل وديانات وخشية للجبار سبحانه. إذ الدنيا في سعادتها والشقاوة مجسّم تقريبي مصغر من الآخرة، ما دام للفانية كما الباقية ذرية وأهلون؛ بكرم الله في أولاهما، وعدله في ثانيتهما. ألم تكن سورة المسد تطرق مسامع أبي لهب –وهو العربي الضليع في الضاد– طيلة عشر سنوات قبل وفاته، دون أن يحاول تكذيبها، ولو من بابِ الجحود والعناد ؟![35]

جعل الوِتْر الصّمد سبحانه الذكر الحكيم في مجمله بيّنا ناصعا، ومع ذلك –يرى صاحب تنبيه الأفهام– أنه ترك مراقيّ من آيه النيّرات مضمارا للمجتهدين والتّقاة الورعين؛ لئلا يكون أجر المتقاعس المتهاون مثل أجر المتفكر المتدبر المعتبر؛ الذي أظهر"الجد والاجتهاد في تعرف معاني خِطاب ربّه".[36]

إن ضمير الخِطاب في الفرقان الجليل، الصادر من السيّد المتعال شطر الشاهد المرسَل صلى الله عليه وسلم، يعنينا –نحن العباد كذلك– ما دام المبشّر صلوات الله عليه إسوتنا والقدوة؛ فقارئ القرآن إنما هو آلة وواسطة، بينما المتحدث الحقيقي الرفيق السلام عز شأنه. وليُنظر تبيانُ ذلك ومثيلُه في اعتبار أحرف المصحف، والتوجه إلى الكعبة في الصلاة، وتكليم موسى عليه السلام من تلقاء الشجرة؛ فهن وسائط يجسرنَ بيننا والإله السُّبّوح تعالى في عُلاه.

قال الطّيّب المتين:" ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا"[37]، وقال أيضا:"الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ".[38] وصف المفسر الآية الأولى بأنها التلاوة العليا، ثم علق على الآية الثانية ملتمساً:" تَطلّبْ هذا واسْمُ بهمتكَ صُعدا إليه، وجاهد نفسك وعدوّك على ذلك، والله المستعان (...) فتفهّمْ تفهمْ، وتعلّمْ تعلمْ، يسّر الله لنا ولك تيسير كل عسير في البلوغ إلى منال رضوانه، إنه هو العليم الحكيم البرّ الرحيم".[39] انتهى كلام أبي الحكم بن بَرَّجانَ.

يصرح علامة العُدوة الأندلسية، ودفين العُدوة المراكشية –متحدثا عن البسملة التي صدّر بها السِّتّير الكبير جل ثناؤه فاتحة الكتاب– :" أبتدئ بقوله العليّ جلّ وعلا:(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ).[40] (...) أخبرنا[41] عن ربه عز وجل أنْ:(بسم الله تعالى) عند بدأتنا في أمورنا وشروعنا في شئوننا كلها، وأنْ نحمده عند فراغنا منها، وربما كانت قراءته إياها؛ أعني: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ) ليستعين بها على الفهم عن ربه، وليبلّغَ عنه ذلك إلى أمته الطالبين العلم والفهم عنه، فإن شطر: (بسم الله) هو القرآن العظيم".[42]

أما بخصوص أسماء المولى الشافي الحسنى، وصفاته العُلا، فقد مخر الشيخ عباب هذا الخضم الثري بثقة لا تعتورها حيرة؛ لاسيما وقد حبّر مصنفا في الموضوع. يقول:" وإذا قرأ العبد بفكر وتدبر، اجتمع له ذكر جميع الأسماء والصفات والبداية والنهاية، إذ الاسم معلوم منه العُلا[43] كلُّه، واسمه (الله) جميع الأسماء له شارحة، وهو جامعها، واسمه (الرحمن) معبر عن استوائه على العرش العظيم المحيط بجميع الخلائق ".[44]

وفي معرض تعليله لمكانة السبع المثاني، وسياق تأويله لسموق شأو فاتحة الكتاب، طفق غزالي الأندلس يلهَجُ:" قَوِيُّ الرجاءِ لقارئ (أم القرآن) أن يكون له أجر جميع الحامدين، وجميع المُثنين، وجميع أجر المُجدّين والمفوّضين والعابدين والمتبرئين من الحول والقوة، وهم المتوكلون، وهذا إذا قرأها بعلم ومشاهدة وحال يقين".[45]

تأمل ابن برجان الإشبيلي عميقا فلسفة الغيب والشهادة، فصدر عن نظر ثاقب، وطرح تعليلي تأويلي نافذ مُفاده والمُؤدّى

قوله:" ونحن الآن في هذه الدار في الغيبة عنه، والسجن الذي حُبسنا فيه عنه عز جلاله. وهذه الدار مؤسسة على الإيمان بالغيب؛ لِمَا قضى به من المحنة والابتلاء، فأقام لنا عز وجل غيب حضوره بالإخبار عنه والإعلام به مقام المشاهدة، والذكر مقام المذكور، والاسم مقام المسمى، كقوله:(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ).[46] ".[47]

وقد تفرد الرجل بخلاصات لافتة، إحداهُن قوله: "قال عزّ منْ قائلٍ:(وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ).[48] (...) فعِلم القرآن لا يتم إلا في الدار الآخرة، وعلوم أهل تلك الدار فيه متفاوتة على مقدار تفاوتهم في علمه فيما هُنَا، فَاعْلَمْهُ".[49]

فلا جرم أن نعت حال أولياء الله الصالحين، والمخلَصين من عباده المخلِصين، بسرد واثق، ممسك بزمام المضارعة زمن خطه لكتابه معلناً:"(...) أبصار بصائر الموقنين تنظر إليه الآن من وراء حُجُب شفافة، لولا رداء الكبرياء يمنعها من التثبيت، وإجلال العظمة يقصُر بها عن التبيين، وهذه آية على إتمام النعمة منه عليهم بالرؤية العَلية والقُرْب المكين في الدار الآخرة".[50]

كُوَّةٌ على اللغة والمهيع في مقدمة " تنبيه الأفهام..":

اِفتتح المؤلف تقدمة تفسيره بثناء مطنِب على الحَكَم الشّهيد سبحانه، بمعية تفصيلِ وشرح قدرته ووحدانيته جل وعلا، ناهيكم بالاستشهاد بآيات موائمات من الوحي السماوي العظيم. لغة أبي الحكم عربية فصيحة وعالمة صميمة، باسقة القدر، فارعة المنزلة. بها من الكلم المنتخبات، والجمل المؤلَّفات، ما يشي بالظرف الزمني المحتضِن: مطلعِ القرن الهجري السادس؛ عام اثنتين وعشرين بعد المائة الخامسة.

اِنتقل المؤلف بعدها إلى الصلاة والسلام بتوسع على الدّاعي النذير المبعوث إلى الثقلين صلى الله عليه وسلم. وحريّ بالتنويه، أن المصنف قد تحرك في مقدمة تفسيره بشكل تدرّجيٍّ من العام مُيَمِّماً الخاص، دون أن يلج الموضوع المقصود محطّ العناية بعبارة فصل الخطاب، إلا بعد تمهيد فسيح، وبسطة فرش.

لقد ركز الشيخ عبد السلام على القرآن الكريم، وما له عُلْقة به في اتصال بِمُنَزّله: الرّبّ الوارث تعالى، وارتباط بالمنزل عليه: السّراج المنير أحمد صلوات الرحمن عليه، وصلته بالمستهدفين به: الجِنةِ والإنسِ أجمعين. لذلك نراه مستشهدا بآي الفرقان استشهادا جَمّاً.

نسجل علاوة على ما ذكر، اختيارَه الكلمَ بعناية، وتأليفَه الجمل باحتراس وصيانة، وبناءَه الفِقَر باحتفال وإخلاص ديانة، بلْه توالي فواصله النثرية بمنطقية سببية وعقلانية؛ عبر كلمات رابطة، وحروف عاطفة، ثم تَهَمُّمَه بتنظيم المكتوب مبنى ومعنى، عبر اتساق النص في مبناه اللغوي، وانسجامه في مُؤداه المضموني، والتوسلَ ببعض العناوين الفاصلة بين فقر النص من مثل: (فصْلٌ)، وأيضا رسمه بعد انتهاء بعض الفقرات لكلمة:(اِنتهى).

أصرّ ابن برجان في الربط بين فقرات المقدمة على واو العطف، واعتمد ضمير الغيبة زاويةً للحديث وتناول الموضوع، مستحضرا –كذلك– ضمير الخِطاب، أو ما يسميه الشيخ بـ:(خِطاب المواجهة)؛ ما صيّر نصه التفسيري تفاعليا وحيويا مُكتسبا لحرارة المقابلة، ومضارَعة الحديث والكتابة.

والخليق بالتنويه أنه تبنى في خطابه المقدماتي طرائق الشرح والتحليل والتفصيل والتقسيم والتفريع، وكذا وضع حدود وتعريفات لمصطلحات هامة وأساس، مع إحالته أحيانا على مخطوط له آخر هو: (أسماء الله الحسنى)، والذي أفاد منه واغترف في سياق حديثه الماهد لتفسير القرآن الجليل الموسوم بـ:(تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم، وتعرف الآيات والنّبأ العظيم

).

وقد حرص على الثناء على الحميد القدير كلما أورده، والصلاةِ على رسله الكرام وقتما ذُكروا، مطعِّما تقدمته بأمثلة حسية وافرة؛ كيما تحصل الإبانة والإفهام، خاصة إحلال المجسَّمات مكان المفهومات؛ بغية الإحاطة بالمجردات، أضف إلى ذلك الاستعانة بشواهد الوحي الحديثي أَوَانَ استعراضه لأطروحته والنظرية.

ولاننسى نصحَه القراء على التعمق في تدبر القرآن الحكيم؛ لأنه يتيح كنوزه والأسرار بقدر الجُهد والمجاهدة والإصرار، وإنهاءَه للتقدمة بالشروع في تفسير أم الكتاب، التي وصفها بأم القرآن، على الرغم من افتتاحه عمله التفسيري بالفاتحة، لكن من دون ما تَكْرار لما سبق وصرح به قبْلا في الأنفاس الأخيرات لمقدمة مخطوطه الغربإسلاميّ، الذائع الصيت في الشرق الإسلامي بخاصة.

أحيانا يتيسر الأسلوب اللغوي لابن برجان –الذي ينأى عنا بقرابة الألف حِجّة– حتى لكأنه من أبناء إبّاننا والأوان، لكنه في أحايين أخريات، يغوص في تفسير كلامي أو إشاري غائرين حتى لتعسر متابعته في طرحه والنظر المتأمل السحيق؛ مثل حديثه عن الاسم والمسمى، والغيب والشهادة، والذكر والمذكور[51] ...إلخ. "وكان من لطفه جل جلاله، وجميل صنعه أن أظهر لعباده من معلوم علمه وموجود قدرته مقدار ما احتملته عقولهم؛ ليصل لهم بحبله حبلهم، وبفطرته التي فطرهم عليها معرفته فأشهدهم مشاهدتهم يومئذ فشهدوا بها على أنفسهم وله بالحق، ثم أشهدهم الآن مشاهدتهم؛ بأن أظهر لهم من أسمائه اسمه الله، وعرفهم به من أجله، وضمّنه العالم كله بأسره، وجعل ذلك مقدارا لما شاء إيجاده، وخلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق".[52]

وهو يتناول الحديث عن أنواع الناس وطبائعهم والاستعدادات، ويفرّع درجات التقوى إلى إيمان وإيقان وصِدّيقية ونبوّة، ويشير إلى المصير الأخروي نعيما وسعيرا، سلك المؤلف الإشبيلي أسلوب فواصل التسجيع، لاسيما في ديباجة خطبة الكتاب، متحدثا –غالبا– بلهجة الواثق، ونَدُرَ ما لهج بجرْس المحترس المتحوّط موظفا كلمة:(رُبَمَا).

أيها الأفاضل الأخيار، الحقَّ أقول لكم، إن حبوري لغامر، وإن شدوهي لزاخر، ونحن نستمع إلى لغة عبدِ السلام بنِ برَّجانَ دفينِ عاصمةِ الغرب الإسلامي مراكشَ، وقد انصرم على رفع قلمه وجفاف حِبْر سِفره زهاء الألف حوْل، دون أن تتنكر لنا العربية، ولا أن تعتاص علينا –في الإجمال– معانٍ أو أبنية. ما يعني أن اللسان العربي الشريف استثناء ناتئ في سماوات الألسن التي تعاني القطائع التاريخية الفادحة، بينما لسان الضاد خالد متواشج؛ لا ينفر عصر من أعصاره من الذي يعقبه.

صدق البَرُّ الحفيظ سبحانه إذ يقول:"إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"[53]، لِمَ لا ؟! والعربية ممتدة مُذْ آدمَ وهو في بُحبوحة الجِنان، إلى إنزاله فوق ابتلاء البسيطة، إلى انحسارها والحفظ في جزيرة العرب، إلى وعد الله تعالى بحفظها من خلال حفظ ذِكره الكريم، إلى ما شاء الله بعد؛ مصداقا لقول الأعلى الغفور: "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ".[54]

الهوامش:

1 فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله تعالى قال: (من عادى لي وليا، فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه). *أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع (8/ 105)، رقم: (6502).*

2 المقدمة هي ما يربط"القارئ بالكتاب بشكل مباشر، وتكشف عن مضمونه وأهميته وغاية صاحبه، وعن نظرة مؤلفه لمشروعه في إطار مجاله. وتحمل المقدمة للقارئ

إفادات وتوجيهات، يستطيع من خلالها أن يضع بها الكتاب في إطاره العلمي والتاريخي، ويقف على محتوياته، ويعرف بها مكانة المؤلف". أرحيلة، عباس. مقدمة الكتاب في التراث الإسلامي وهاجس الإبداع. ص: 60 –61.

3 زمان الوصل بالأندلس مُجْبِرُنَا هو على الغوص في غيابات البوغاز، ورماد سفائن طارق، وقرون ثمانية، وأَلَقِ الأندلسيينَ الحضاريّ الباسط جماله على أرض الجزيرة. زمان بَهِيٌّ لا زالت أنسامُهُ المُداعباتُ مخيالَنَا، يزرننا، كلما هبت رنات الأجواق الأندلسية، أوصدحت الأناشيد الغرناطية، بزمان الفردوس العَبِق المفقود؛ الذي يُدنيه التاريخ وتشطّ به الجغرافيا.

4 نشاطه وخفته .

5 المقري، أحمد. نفح الطيب. 1/127 و 128.

6 الصغير، نورالدين. مركزية التجربة الأندلسية وأثرها في الوعي التاريخي العربي الإسلامي. ص (3–54).

7 المقري، أحمد. نفح الطيب. 1/ 108و 109.

8 ينظر كتاب: مخلوف، محمد. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. الصفحتان: 132 و133، وكتاب: *غرميني، عبد السلام. المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري. ص: 116 . الفقرة الرابعة.*

9 "... ففيه (أي التصوف) تتضافر وتتلاحم الأبعاد الأسطورية الخيالية والتاريخية والنفسانية والمجتمعية والدينية القدسية، وفيه نقارب المطلق من خلال النّسبيّ والعجيب الخلاب من بين المألوف المتداول، ونعانق الغير من منطلق الذات، ونعايش اللاشعور عبر الشعور، ونستشف الإشارة عند العبارة..". ابن قسي، أحمد. كتاب خلع النعلين واقتباس النور من موضع القدمين. ص06.

10 الذهبي، شمس الدين. سير أعلام النبلاء. الجزء 14. ص: 465.

11 *ابن برّجان، عبد السلام. شرح أسماء الله الحسنى. ص: 06.*

12 "لم تتركوا البراهين على أصلها، (...) وأوسعتم المتشابه تأويلا، (...) وهوّلتم باصطلاح غيركم تهويلا، وادّعيتم الشُّهود ولم يجعل الله في الاحتجاج به للأنبياء سبيلا، وبنيتم الحقائق على قياس ونظر، من غير عين للعقل والنقل ولا أثر (...) ولولا الافتيات لوضّحت في ميدان السبق لكم الشّيات، لكن شأنكم الهذيان، وقُلِبَتْ منكم بضعفائكم من المتأخرين الأعيان، كابن قسي وابن برّجان.". ابن الخطيب السلماني، لسان الدين. روضة التعريف بالحب الشريف. الجزء الثاني. الصفحتان: 636 و637.

13 *الغرناطي، أحمد. كتاب صلة الصلة. ص: 33.*

14 *الخمول: طباق الشهرة.*

15 *الغرناطي، أحمد. كتاب صلة الصلة. ص: 34.*

16 *غرميني، عبد السلام. المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري. ص: 133 .*

17 *المرجع نفسه، ص: 134 .*

18 *الغرناطي، أحمد. كتاب صلة الصلة. ص:* 07.

19 ابن بَرَّجان، عبد السلام. تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم، وتعرف الآيات والنّبأ العظيم. الجزء الأول. ص: 51.

20 " الأسماء قد سرت مسالكها من العالم سلوك الأرواح في الأجسام، وحلّت منه محل الأمر من الخلق، ولازمته لزوم الأعراض للأجسام، فما من موجود دقّ أو جلّ، علا أو سفل، إلا وأسماء الله جل ذكره محيطة به علما ومعنى، ومقتضى اسم الألوهية جامع لمعاني سائر الأسماء.". المصدر والجزء نفساهما. ص: 64.

21 ابن بَرَّجان، عبد السلام. تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم، وتعرف الآيات والنّبأ العظيم. الجزء الأول. ص: 64.

22 المصدر والجزء نفساهما. ص: 52.

23 ابن بَرَّجان، عبد السلام. تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم، وتعرف الآيات والنّبأ العظيم. الجزء الأول. ص:52.

24 المصدر والجزء نفساهما. ص: 53.

25 .. نسبةً إلى: الملائكة.

26 جنبة الفتح: كناية عن الجنة.

27 ابن بَرَّجان، عبد السلام. تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم، وتعرف الآيات والنّبأ العظيم. الجزء الأول. ص: 54.

28 المصدر والجزء نفساهما. ص: 55.

29 الجواد اسم من أسماء الله تعالى، فقد روى البيهقي في شعب الإيمان، وأبو نعيم في الحلية من حديث طلحة بن عبيد الله وابن عباس رضي الله عنهم، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله تعالى جواد يحب الجود، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفسافها). صححه الألباني في صحيح الجامع، رقم: 1744.

30 "كان عمر–رضي الله عنه– قد بعث سرية فاستعمل عليهم رجلاً يدعى سارية، قال: فبينا عمر يخطب الناس يومًا، قال: فجعل يصيح وهو على المنبر: يا ساريةُ الجبل، يا سارية الجبل، قال فقدم رسول الجيش، فسأله فقال: يا أمير المؤمنين لقينا عدونا فهزمنا، فإذا بصائح يصيح: يا سارية الجبل، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله". ابن حنبل، أحمد. فضائل الصحابة. ص: 269 و 270. وأورد هذه الواقعة أيضا: الإمام أبو نعيم في"دلائل النبوة"، والإمام الضياء في"المنتقى من مسموعاته"، والإمام ابن عساكر في "تاريخه"، والإمام البيهقي في "دلائل النبوة"، والإمام ابن حجر العسقلاني في "الإصابة".

31 ابن بَرَّجان، عبد السلام. تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم، وتعرف الآيات والنّبأ العظيم. الجزء الأول. ص: 57.

32 قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ سورة الحج، الآية: **38**.

33 سورة فاطر، الآية: **27**.

34 سورة الرعد، الآية: **04**.

35 ميللر، جاري. (د–ت). القرآن المعجز. نسخة إلكترونية. Www.rasoulallah.net. ص: **25**.

36 ابن بَرَّجان، عبد السلام. تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم، وتعرف الآيات والنّبأ العظيم. الجزء الأول. ص: **58**.

37 سورة فاطر، الآية: **32**.

38 سورة البقرة، الآية: **121**.

39 ابن بَرَّجان، عبد السلام. تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم، وتعرف الآيات والنّبأ العظيم. الجزء الأول. ص: **60**.

40 سورة الفاتحة، الآية: **01**.

41 أي: النبي صلى الله عليه وسلم.

42 ابن بَرَّجان، عبد السلام. تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم، وتعرف الآيات والنّبأ العظيم. الجزء الأول. ص: **60**.

43 عُلا السطر الأول من الفقرة: جمع: عُليا، وعُلا السطر ماقبل الأخير: الرفعة والشرف.

44 ابن بَرَّجان، عبد السلام. تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم، وتعرف الآيات والنّبأ العظيم. الجزء الأول. الصفحتان: **60** و**61**.

45 المصدر والجزء نفساهما. ص: **62**.

46 سورة الواقعة، الآية: **74**.

47 ابن بَرَّجان، عبد السلام. تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم، وتعرف الآيات والنّبأ العظيم. الجزء الأول. ص: **63**.

48 سورة الأعراف، الآيتان: **52–53**.

49 ابن بَرَّجان، عبد السلام. تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم، وتعرف الآيات والنّبأ العظيم. الجزء الأول. ص: **67–68**.

50 المصدر والجزء نفساهما. ص: **68**.

51 " ألف رحمه الله كتابه في التفسير وجرى فيه على طريقة لم يسبق إليها واستقرأ من آياتٍ عجائبَ، وكوائنَ من الغيوب؛ إلا أنه أغمض في التعبير عن ذلك، فلا يصل إلى مقصوده إلا من فهم كلامه، وألِف إشارته وإلهامه". *الغرناطي، أحمد. كتاب صلة الصلة. ص: 33.*

52 ابن بَرَّجان، عبد السلام. تنبيه الأفهام إلى تدبّر الكتاب الحكيم، وتعرف الآيات والنّبأ العظيم. الجزء الأول. ص: **68**.

53 سورة يوسف، الآية: **02**.

54 سورة الحجر، الآية: **09**.